الوصف :

الشعراءُ فنّانون مبدعونَ يرسمونَ بالكلمات مايرون ، ويُصوّرون مايشاهدونَ ، ويصفونَ مايحسون به ؛ ومن هنا كثر نتاجهم الشعريُ في غرض الوصف ، حتى قال ابن رشيق : « الشعر إلاّ أقلّه راجعٌ الى باب الوصف . ولاسبيل الى حصره واستقصائه »(١٥٨) . وقد خصّه الدارسونَ القدامى والمحدثونَ بعنايتهم ورعايتهم ، وأفردوا له أبواباً في مؤلفاتهم واختياراتهم .

إنّ الشعر العربي زاخرٌ بأوصاف كثيرة منتزعة من البيئة ابتداءً من عصر ما قبل الاسلام . وقد أعطتنا دولة بني العباس ألواناً مختلفة من هذه الاوصاف منها قديمة امتدتْ اليها يدُ الحضارة بالتهذيب والتطوير ، ومنها مبتكرة أوجدتها المدنية الجديدة التي تضافرتْ أمم كثيرة وأجناس مختلفة على خلقها . فإذا وصف ـ مثلاً ـ الشاعر الجاهلي رحلةً في مضارب الصحراء ، فإنّ بشار بن برد وصف في قصيدة رحلة الخليفة الهادي من البصرة الى بغداد في نهر الفرات(١٥٩) ، وتناول أبو نواس نزهةً للخليفة الأمين في سفينة جميلة الصنع تمخرُ عُبابَ الماء في نهر دجلة(١٦٠) :

---

(١٥٤) الأغاني ٢ : ٦١ ولكل من ابن منظور وأبي هفان كتاب مفرد في أخباره .

(١٥٥) الأغاني ٢ : ١٤٦ . وراجع كتاب (الحسين بن الضحاك) للدكتور شوقي رياض .

(١٥٦) الأغاني ١٨ : ١٠٠ .

(١٥٧) العصر العباسي الأول ص ٧٣ .

(١٥٨) العمدة ٢ : ٢٩٢ .

(١٥٩) ديوانه ٢ : ٢٨٣ .

(١٦٠) ديوانه ص ٤١٤ .

ـــ خَرَ الله للأمـــيـــن مـــطـايا لم تُسَخَّرْ لصاحب المحراب(١٦١)
فاذا ما ركابـــــــــهُ سِرْنَ برّاً سارَ في الماء راكباً ليثَ غاب
أسداً باســطاً ذراعـيـهِ . يـعدو أهرَتَ الشِدْقِ . كالخ الأنياب(١٦٢)
لا يـعانـيـهِ بالـلـجام . ولا الـسّو طِ . ولا غمزِ رجلِهِ في الرّكاب
عجبَ الناسُ إذ رأوه على صو رة لـيـثٍ يـمرُّ مرَّ الـسـحاب

ولم تكن السفن والقوارب فقط تثير إعجاب الشعراء . بل الجسور المقامة على دجلة أيضاً . يقول علي بن الفرج :(١٦٣)

أيا حبذا جسرٌ على متنِ دجلةٍ بإتـقانِ تأسـيسٍ وحُسْنِ ورونـقِ
جـمالٌ وفـخرٌ لـلـعراقِ ونُزهةٌ وسلوةُ مَنْ أضناهُ فرطُ التشوّقِ

وأقبل الشعراء العباسيون على الطبيعة الجميلة إقبالاً كبيراً . فلم يتركوا شيئاً فيها إلاّ وصفوه . سواء كان في الأرض أم في السماء . من رياض ومروج وبساتين . وأزهار وأشجار وأثمار . ودور وقصور وقباب . ومآكل ومشارب . وسحب وأمطار . ونجوم وأفلاك ... من ذلك قول مروان بن أبي حفصة يصف حديقة وهبها له المهدي . ويذكر نخلها وشجرها .(١٦٤)

نواضرَ غُلباً قد تدانتْ رؤوسُها من النّبتِ حتى مايطيرُ غُرابُها(١٦٥)
ترى الباسقاتِ العُمَّ فيها كأنّها ظعائنُ مضروبٌ عليها قِبابُها(١٦٦)
ترى بابَها سهلاً لكلِّ مُدفَّعٍ إذا أينعتْ نخلٌ فأغلقَ بابُها(١٦٧)
يكونُ لنا مانجتني من ثمارِها ربيعاً إذا الآفاقُ قلَّ سحابُها

ووصفوا القصور وما فيها من فُرش وأثاث . وما يحيط بها من حدائق غناء . تُغرّدُ فيها الطيور . وتجري فيها الظباء والغزلان مثل قول أبي عيُينه بن محمد بن أبي عُيينه . في وصف قصر بالبصرة(١٦٨) :

---

(١٦١) المطايا : اراد بها السفن التي يطلق عليها العراقات . صاحب المحراب : سليمان بن داود .
(١٦٢) أهرت الشدق : واسعة .
(١٦٣) تاريخ بغداد ١ : ١١٩ .
(١٦٤) شعر مروان بن أبي حفصة ص ٢٥ .
(١٦٥) النواضر : الخضراء الحديدة الخضرة . الغلب : الطويلة الملتفة .
(١٦٦) العم : جمع عميمة . وهي النخلة الطويلة .
(١٦٧) المدفع : القصير .
(١٦٨) ديوانه ص ٣٦ . وينظر الأغاني ٢٠ : ٩٠ .

وسرب من الغزلان يرتعن حولهُ كما انسلَّ منظومٌ من الدُّرِّ من سلكِ
وورقاءَ تحكي الموصليَّ اذا شدتْ بتغريدها أحببْ بها وبمَنْ تحكي !
فيا طيب ذاكَ القصرِ قصراً ونزهةً بأفيح سهلٍ غيرِ وعرٍ ولا ضنْكِ

وكان للثمار الموجودة في الحدائق والبساتين نصيبٌ من شعر الوصف . ومن طريف ماجاء في وصف التفاح قول بشار بن بُرد(١٦٩) :

وتفاحةٍ من خالصِ التِّبرِ نصفُها ومن جُلَّنارٍ نصفُها وشقائقِ
كأنَّ الهوى قد ردَّ بعد تفرُّقٍ لها خدَّ معشوقٍ الى خدِّ عاشقِ

ومن بديع وصف العنبِ الرازقيِّ قول ابن الرومي(١٧٠) :

كأنَّ الرَّازقيَّ وقد تناهى وباهتْ بالعناقيدِ الكرومُ
قواريرٌ بماءِ الوردِ ملأى تَشِفُّ ولؤلؤٌ فيها يعومُ

وتحبُبُهُ من الشُّهدِ المصفَّى اذا اختلفتْ عليكَ الطُّعومُ
فكلُّ مُجَمَّعٍ منه ثُريَّا وكلُّ مُفَرَّقٍ منه نجومُ

وكانت قصور الخلفاء والأسر الغنية حافلةً . الى جانب الطعوم اللذيذة والفواكه الشهية . بوسائل اللهو واللعب التي كانوا يقضون بها أوقات فراغهم . من ذلك لعبة الشطرنج . وقد أحسن المأمون في وصفها وتشبيهها بمعركة حربية حامية بين عسكرين(١٧١) :

أرضٌ مربعةٌ خضراءُ من أدمٍ ما بين إلفين معروفين بالكرمِ
تذاكرا الحربَ فاحتالا لها جيلاً من غير أنْ يأثما فيها بسفكِ دمِ
هذا يغيرُ على هذا . وذاكَ على هذا يغيرُ . وعينُ الحزمِ لم تنمِ
فانظرْ إلى فطنٍ جالتْ بمعركةٍ في عسكرينِ بلا طبلٍ ولا علمِ

ومن وسائل اللهو التي أخذتْ جانباً كبيراً من شعر الوصف خارج الدور والقصور . الصيد والطرد . وكان الخليفة المهدي من أشهر الخلفاء عناية بالصقور والبزاة وكلاب الصيد . ومن طريف مايروى عنه أنه خرج مع ابن عم أبيه عليّ بن

---

(١٦٩) نزهة الأنام في محاسن الشام ص ٢٠٥ ، وهذان البيتان ليسا في الموجود من الديوان
(١٧٠) نزهة الأنام في محاسن الشام ص ٢٢٨ ، ولم ترد هذه الأبيات في الديوان المطبوع
(١٧١) المستطرف ٢ : ٢٥٩ ، تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٢٨ ، وتنسب الابيات الى علي بن الجهم ينظر ديوانه ص ١٧٩ .

سليمان إلى الصيد فسنح لهما قطيع من ظباء . فأرسلت الكلاب وأجريت الخيل فرمى المهديُّ ظبياً بسهم فصرعه . ورمى علي بن سليمان فأصاب بعض الكلاب فقتله . فقال أبو دُلامة .

قد رمى المهديُّ ظبياً ... شكَّ بالسهم فؤادهْ
وعليُّ بن سليما ... ن رمى كلباً فصادهْ
فهنيئاً لهما كلْ ... لُ امرىء يأكلُ زادهْ

فضحك المهدي حتى كاد أنْ يسقطَ عن سرجه . وقال : صدق والله أبو دُلامة . وأمر له بجائزة سنية (١٧٣).

ونظر الشعراء الى الأنواء الجوية . ووصفوها بقصائد ومقطوعات . فهذا أبو عُبادة البحتري يُجيد بلغة رقيقة عذبة وصفَ السحاب والبرق . ويرسمهما رسماً دقيقاً يدلّ على خيالٍ خصب ينفذ في دقائق الأشياء فيبرزها ويظهرها بأبهى حلةٍ وأجمل منظر (١٧٤) :

ذات ارتجاز كحنين الرَّعد ... مجرورة الذيل صدوق الوعد
مفوحة الدَّمع لغير وجد ... لها نسيم كنسيم الوَرْد
ورنَّة مثل زئير الأسْد ... ولمعٌ برقٍ كسيوف الهند
جاءت بها ريح الصَّبا من نجد ... فانتشرت مثل انتشار الجُنْد
فراحت الأرض بعيش رغد ... من وشي أنوار الرُّبى في بُرد

ونلاحظ ابراهيم بن هَرْمة يصفُ في قصيدة رائعة النجوم والكواكب وكأنّه عالم جليل من علماء الفلك . يتناول فيها هيئاتها الخلّابة . وألوانها الجذّابة . وحركاتها الدقيقة المنتظمة (١٧٥) .

وشارك الشعراءُ مشاركة كبيرة في وصف الخمرة وأدواتها وسُقاتها ومجالسها وما يتردَّدُ في هذه المجالس من أصواتٍ للمغنيين والمغنيات الى جانب الآلات الموسيقية . وسنوضّحُ هذا الوصف لاحقاً في حديثنا عن الخمريات .

---

(١٧٣) الأغاني ١ : ٥٢٨ .
(١٧٤) ديوانه ١ : ٥٩٧ .
(١٧٥) ينظر ديوان ابراهيم بن هرمة ص ١١٤ .

أما المعارك والحروب فقد تناولها عددٌ من الشعراء بالوصف . فَمَثلاً نجد بشار بن برد يصوّرُ معركةً ثار فيها الغبار ولمعتْ فيها السيوفُ حتى خُيّلَ اليه أنها نجوم تتساقط في الليل(١٧٥) :

كأنّ مثارَ النّقْع فوقَ رؤوسنا وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبة

واشتهر مسلم بن الوليد بوصف الحرب وتصوير شجاعة الفرسان وقوّتهم واقدامهم ، وقد تأثر به المتنبي فيما بعد ، مثل قوله(١٧٦) :

يَغْشَى الوغَى ، وشهابُ الحربِ في يَدِهِ يَرْمي الفوارسَ والأبطالَ بالشُّعَلِ
يفترُّ عندَ اقترارِ الحربِ مُبْتَسِماً اذا تغيرَ وجهُ الفارسِ البطلِ

وبرز أبو تمام في وصف حروب الروم والمسلمين ونظم قصائد جيدة رسم فيها صوراً باهرةً للجيش العباسي المظفر والى جانبه القتلى والجرحى والأسرى للأعداء . انظر الى هذه الأبيات التي وصفَ فيها شجاعة المقاتلين ومهارتهم وهم مُتخصّصون بسيوفهم ودروعهم ومُنقضّون على الخصوم كالأسود :(١٧٧)

تجذوا الحديدَ من الحديدِ معاقلاً سكّانها الأرواحُ والأجسام(١٧٨)
مسترسلينَ الى الحتوفِ كأنّما بينَ الحتوفِ وبينهم أرحامُ
آسادُ موتٍ مُخْدِراتٌ مالُها إلاّ الصوارمُ والنقا آجامُ

إنّ فنّ الوصف الذي ذكرنا طرفاً منه متعدّدُ الجوانب الى حدٍ بعيد . ويمكن للقاريء ، اذا أراد التوسّع ، أنْ يرى صوراً كثيرة في الدواوين الشعرية والكتب الأدبية مثل كتاب التشبيهات لابن أبي عون الكاتب . وغرائب التشبيهات لعلي بن ظافر الأزدي . والمحب والمحبوب والمشموم والمشروب للسري الرفّاء . والتحف والهدايا للخالديين . وديوان المعاني لأبي هلال العسكري ...

---

(١٧٥) ديوانه ١ : ٣٠٩ .
(١٧٦) ديوانه ص ٩ .
(١٧٧) ديوانه ٢ : ١٥٦ .
(١٧٨) أي جعلوا سيوفهم معاقل من سيوفٍ غيرهم .